السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830

المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

المحور االثاني: أوضاع بلدان المغرب أواخر القرن 15 وأوائل السادس عشر.

أ.د. عبد القادر فكاير

أولا: الأوضاع في المغرب الأوسط (الجزائر):

لقد تميزت الأوضاع في الجزائر ، خلال القرن الخامس عشر بالاضطراب السياسية والاجتماعية ، وبالغموض أحيانا . فقد كانت الحدود السياسية للبلاد في ذلك العهد غير ثابتة، فكان جزءا كبيرا من شرق الجزائر الحالية وجنوبها الشرقي تحت نفوذ الدولة الحفصية ، الذي كان يشمل قسنطينة وعنابة وبجاية وبسكرة وتقرت. وكانت حدود الدولة الزيانية تمتد من بجاية والزاب وورقلة شرقا إلى نهر ملوية غربا. لقد ساهمت في تلك الاضطرابات عوامل عديدة ، نذكر منها ضعف الملوك ، والتطاحن العائلي في الأسر الحاكمة سواء في تلمسان أو في بجاية ، من أجل الفوز بالحكم . فكان الخصام بينهم قد دفع ببعضهم إلى الاستجارة الأنصار لمحاربة السلطان القائم ، فكان الأبناء يثورون ويخلعون آباءهم ،كما كان الأبناء يحاربون بعضهم بعضا لاقتسام ملك أبيهم استغلت بعض القبائل ـ التي كانت تحضى بشبه استقلال في أراضيها ـ تلك الأوضاع ، فكلما شعرت بضعف الملوك ؛ زادت من حدة عصيانها وتمردها وتحديها للسلطة القائمة ، فلم يكن يعنيها سوى مصالح القبيلة. إلى جانب ذلك ، كان المغرب الأوسط واقعا في الوسط بين تهديدات المرينيين من الغرب، والحفصيين من الشرق .سعت كل بسط نفوذها على هاته المنطقة.

فعندما تعرضت الجزائر للاحتلال الأسبان في بداية القرن السادس عشر ؛ كانت مجزأة إلى حوالي خمسة عشر كيانا، تهيمن عليها القبائل . فكانت قبيلتا سويد وبني عامر تسيطران على معظم سهول وهران ، وكان آل المقراني يهيمنون على منطق القبائل الصغرى (وادي بجاية) حيث كانت قاعدة إمارتهم قلعة بني عباس ، تحولت إلى مجانة والقبائل الكبرى ، تحت تصرف آل ابن القاضي ، ومقر إمارتهم جبل كوكو . أما كدينة الجزائر وسهول متيجة فكانت منذ القرن الرابع عشر تحت سلطة الثعالبة تتعرض لنفوذ الزيانيين تارة ، ولملوك بني حفص تارة أخرى ، إلى أن استقلت بأمرها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فأصبحت أشبه ما يكون بجمهورية يديرها مجلسا مؤلفا من أعيان المدينة تحت سلطة الثعالبة ، كان الشيخ عبد الرحمن الثعالبي أحد رجال حكمها [3]. وكانت كل من قبائل الدواودة والأحرار وسد ويكش وبني تيقرين تهيمن على ناحية لا تنالها في تصرفاتها أحكام الملوك.

لقد تعرض كثير من الفقها ء إلى سلوكات هؤلاء القبائل وتصرفاتهم مع الحكام، لعل من أشهرهم صاحب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة عند التعرض لبعض الأسئلة

المتعلقة بتمرد تلك القبائل حيث قال: ((وسئل الحفيد سيدي محمد العقباني عن هؤلاء الأعراب المتغلبين على البلاد لضعف السلطنة أحيانا يكونون خدما للسلطان ، وتارة يكونون محالفين على السلطان كما يفعل عرب بلادنا مثل بني عامر، وبني سويد يعمد أحدهم إلى تولية قاض في وطنه (أي إقطاعه) بلا أمر الإمام فيقض، هل تصح توليته وتنفذ أحكامه)).

لقد أدى ذلك الوضع إلى انتشار عقيدة المرابطية والزوايا والحركة الصوفية ، فقد أدى الضعف السياسي بالناس إلى الإقبال على الانخراط في الزوايا والرباطات يتناقلون أخبار الأولياء وكراتهم .كما كان هؤلاء المتصوفة يحكمون التنافس في قضاياهم . من أهم الزوايا التي تكونت بالجزائر في ذلك العهد ، زاوية الثعالبي في مدينة الجزائر ، وزاوية الملارية في قسنطينة ، وزاوية السنوسي بتلمسان ، وضريح محمد الهواري في وهران. وكان لتلك الزوايا دورا في النشاط الديني والسياسي . وقد اعتبر الصليبيون الجدد الذين ظهروا في شبه جزيرة أيبيريا ، أن تلك الوضعية المتدهورة التي عرفتها البلاد المغربية بما فيها أرض الجزائر ، فرصة مناسبة لتوسيع نطاق نفوذهم.

للتعرف أكثر على الأوضاع في المغرب الأوسط يجدر بنا التطرق إلى أكبر الوحدات السياسية التي كانت قائمة خلال القرن 15 ، وهما الدولة الزيانية ، ومملكة بجاية.

1 ـ الدولة الزيانية بين الخلافات الداخلية والتهديدات المرينية والحفصية :

كانت الدولة الزيانية خلال القرن الخامس عشر تتميز بالتناحر بين أفراد الأسرة الحاكمة ، أو وقوعها تحت التأثيرات المرينية أو الحفصية نظرا لموقعها الجغرافي بين المملكتين السابقتين . فقد ووجد ملوك تونس وكذلك ملوك بني مرين في تلمسان الظروف المناسبة لزرع الفتن ، فقد اكتفوا في بعض الأحيان بتأييد الطامعين من أفراد العائلة الحاكمة في العرش ، فيدفعونهم إلى الثورة ضد من هو في العرش . فعلى سبيل المثال استجار أبو زيان محمد بحكومة تونس ، فجاء حاكم تونس مغيرا على مدينة الجزائر ومتيجة وتنس ، ومليانة وغيرها فاحتلها في سنة 1438. وبهذه الصفة وغيرها كان بعض ملوك تلمسان في القرن الخامس عشر ، وحتى بقية عمر الدولة خلال القرن السادس عشر لا يبقون في الحكم سوى مدة قصيرة لا تتجاوز بضعة أشهر في بعض الأحيان ، وقليل منهم من حكم لسنوات عديدة.

وإذا كان أبو العباس العاقل قد استمر في الملك مدة قياسية بالمقارنة مع من سبقه من الملوك أو الذين جاءوا بعده ، فإن عهده هو الآخر لم ينج من الفتن التي أثارتها بعض القبائل أو بعض أفراد الأسرة المالكة ، نذكر منها الثورة التي قام بها أحمد بن الناصر بن المولى أبو حمو خلال سنة 1446 ، وانتهت حركته بالقتل. وقام أمير آخر وهو محمد بن محمد بن أبي ثابت الملقب بالمتوكل على الله بثورة أخرى ، وتمكن من الإطاحة بعم أبيه الملك أبو العباس أحمد ، سنة 866هجرية / الموافق لسنة 1462 م. وبعد ذلك أبعد إلى الأندلس حيث سعى هناك إلى تكوين جيش عاد به إلى تلمسان ، فحاصرها لمدة أسبوعين ، لكنه لم يتمكن من فتحها ، فقتل في معركة وقعت بينه وبين جيش المتوكل في أوت سنة 1463.

غير أن أهم الأعمال التي قام بها المتوكل هم توحيد كلمة الرعية ، بعد أن أخضع لسلطته العرب وجميع المخالفين له ، كما غزت في عهده سفنه السواحل الإيطالية والأسبانية انتقاما لما حل بمسلمي صقلية والأندلس . كما عمل على حماية ثغر هنين من اعتداءات

النصارى ، وسعى المتوكل إلى المحافظة على استقلال مملكته ، ففي سنة 1463 أعلن عن رفضه الدعوة للحفصيين وطرد ولاتهم من أعمالها . لكن تواطؤ بعض القبائل مثل بني سويد مع الحفصيين جعلت السلطان الحفصي يتحرك بجيوشه إلى تلمسان ، فحاصرها وضرب أسوارها ، فلم يجد التوكل بدا من تجديد البيعة للحفصيين ، عندئذ رجع الملك الحفصي إلى تونس وذلك في سنة 1467 . كان ذلك آخر تدخل حفصي في مملكة بني زيان.

وبعد المتوكل عرفت الدولة الزيانية فترة من الضعف ،حيث تجددت الفتن العائلية على الحكم ، فبعد وفاة المتوكل سنة 1485 ، خلفه ابنه أبو تاشفين ، وبعد أربعين سنة من الحكم خلعه أخوه أبو عبد الله محمد الثابتي ، الذي تميز عهده بالاضطرابات ،حيث أخذت بعض المدن تستقل بأمرها مثل تنس والجزائر ، كما أخذت بعض القبائل تنظم إلى أعدائه كلما هاجموا أراضي المملكة.

ولعل من أهم الأخطار التي تعرضت لها المملكة هو التحرش الأسباني الذي شرع. فبعد أن استولى الأسبان على مملكة غرناطة في سنة 1492 ، تزايد عدد المهاجرين الأندلسيين إلى السواحل المغرب الأوسط ، كان من بينهم ملك غرناطة أبو عبد الله الزغل ، الذي استقبله الملك الزياني أبو عبد الله محمد الثابتي بحفاوة في تلمسان .

2 ـ مملكة بجاية (الحفصية) :

إن أول ماوقع من الأراضي الجزائرية تحت سلطة الدولة الحفصية ، ولايتا قسنطينة وبجاية ، عندما زحف عليهما أبو زكرياء الأول الحفصي سنة 1230م ، . ونظرا للأهمية الاستراتيجية لثغر بجاية ، عين السلطان الحفصي ابنه الأمير أبو يحي أميرا عليها ، وعين ابن النعمان من هنتاتة على قسنطينة ومع مرور السنوات أصبحت بجاية تلعب دورا أساسيا في تدعيم ومساندة حاضرة الحفصيين في توسعاتهم نحو الجهات الغربية ، أو لشد أزر تونس أما التهديدات الصليبية .

وقد امتد نفوذ الحفصيين في المناطق الشرقية للجزائر حتى أصبح يضم إلى جانب بجاية وقسنطينة ؛كل من عنابة وبسكرة وتقرت ، فأصبحت بجاية تعد عاصمة هذا الإقليم . غير أن الاضطرابات التي حدثت بين الأمراء ، آل بها إلى الانسلاخ عن تونس ، ففي سنة 1287 انقسمت الدولة الحفصية على نفسها ، حيث انتصب أبو حفص بن أبي زكريا بحاضرة تونس ، واستقل بالناحية الغربية وعاصمتها بجاية أبو زكريا بن أبي اسحاق ، وذلك للتنافس الذي كان بين الرجلين ، لتصبح مملكة مستقلة.

وقد عرفت بجاية في بعض أوقاتها استقرارا وازدهارا أدى إلى توسيع رقعتها الجغرافية ، حيث امتدت حدودها حتى منطقة الجريد التونسي ، وكان ذلك بسبب تحالف القبائل العربية مع أمير بجاية ، مثل العمل أقدم عليه الزاب ، المنصور بن مزني عندما أعلن انفصاله عن السلطة الحفصية في تونس سنة 1294 وانضمامه بإقليمه الواسع إلى أمير بجاية أبي زكريا . ولما أصبحت تلك القبائل تشكل خطرا على استقر لأوضاع في الأقاليم الشرقية للملكة الحفصية ، كانت في بعض الأحيان بإيعاز من صاحب بجاية ، لجأ السلطان الحفصي

أبو عصيدة ، إلى الاستنجاد ببني مرين من أجل التضييق على البجائيين . عندئذ قام السلطان أبو يعقوب المريني بفرض حصار على بجاية لعدة أيام ، لكنه لم يتمكن من إخضاعها لنفوذه.

عرف الحفصيون خلال هذا القرن أزمات عديدة كان مصدرها تضافر جهود القبائل العربية مثل بني سالم والذواودة وعبد الوادي . فقد كان أصحاب تلمسان يأملون في ضم بجاية إلى سلطتهم ، وهذا ما جعل السلطان الحفصي أبو يحي أبو بكر يستغيث ببني مرين ، فجهز السلطان أبو الحسن المريني أسطولا وبعث به إلى حليفه ببجاية ونهض مع قوات أبي يحي لغزو مدينة تيكلالت. فاستولى عليها ثم خربها. ولما توفي أبو يحي سنة 1346م تأزمت الأمور الداخلية من جديد ، جعلت أبو حسن المريني ، يغزو قسنطينة وبجاية ثم دخل تونس في السنة الموالية (1347) ، لكن سلطته عليهم لم تستمر طويلا ، إذ تألبت عليه القبائل وهزمته في القيروان سنة 1384.

وكان لاستمرار الخلافات العائلية ، سببا في قيام المرينيين من جديد بغزو قسنطينة وعنابة سنة 1357 ، لكن نفوذهم بها لم يدم طويلا . وفي عهد السلطان أبي العباس الذي كان أميرا على قسنطينة، وقبل دخوله إلى تونس سنة 1370 تمكن من أخذ بجاية وتدلس وعنابة سنة 1366 وذلك بإعانة من الذواودة .

وتوجه السلطان أبو فارس الحفصي (1394 – 1433) نحو المناطق الغربية للمملكة ، الواقعة إلى الغرب من وادي ريغ التي كانت خارجة عن سلطة الحفصيين بما في ذلك بسكرة التي كانت تحت سلطة أمراء عائلة بني مزني ، فاحتلها وكذلك الواحات المجاورة لها وذلك في سنة 1401. وفي نهاية عام 1408 ، وبعد هروب الأمير عبد الله من عنابة ذهب ليبحث له عن ملجأ في المغرب ، وعاد من هناك على رأس قوات مرينية ، دعمت في الطريق ببعض رجال القبائل العربية ، ثم احتل بجاية . إثر ذلك خرج إليه السلطان الحفصي وتمكن من قتله إثر معركة غير متكافئة واحتل بجاية مرة اخرى في سنة 1409 ثم عين عليها ابن أخيه أبو العباس.

لقد ظلت بجاية والأقاليم التابعة لها تحت السلطة الحفصية في تونس من سنة 1366 إلى غاية سنة 1435 ، وما أن تولى أبو عمر عثمان الحكم سنة 1435 حتى أعلن عمه أبو الحسن حاكم بجاية استقلاله ، وكان مدعوما من طرف شيوخ أولاد أبوالليل وعلى رأسهم عيسى بن محمد وكذلك من طرف الدواودة . ففي بداية سنة 1436 توجه صاحب بجاية إلى قسنطينة بهدف احتلالها فحاصرها لمدة شهر ، غير أن حاميتها أجبرته على رفع الحصار والتوجه إلى تونس العاصمة . ولما علم أبو عمر بالأمر خرج إليه على رأس قوات معتبرة وتمكن من هزمه في معركة وادي سيراط وذلك في 6 أكتوبر 1436 ، ففر أبو الحسن مع بعض فرسانه إلى بجاية ، بعد أن انفض عنه أولاد أبو الليل) .

لقد ظن أبو عمر أن انفضاض الأعراب من حول عمه يسهل له مهاجمة بجاية واحتلالها ، فخرج إليها في سنة 1437 ، لكنه لم يتمكن من بلوغها بسبب اصطدامه بأنصار أبي الحسن الذين اعترضوا طريقه ، وأضعفوا قواته ، عندئذ اضطر إلى العودة إلى تونس. وبعد سنتين قام بحملة جديدة على بجاية ، فدخلها بعد أن كان أبو الحسن قد أخلاها ، فعفى عن سكانها وعين على رأسها ابن عمه عبد المؤمن بن أبي العباس أحمد ، ثم قفل راجعا إلى

تونس. ولم يكد السلطان أن يدخل تونس حتى ظهر أو الحسن من جديد في جبال القبائل ، فلم يتوقف عن مضايقة حاكم بجاية واستدراج حاكمها إلى خارج المدينة ، وفي إحدى خرجاته قتل من طرف بني سيلين في ماي 1442 ، وخلفه في الحكم أخاه أبو محمد عبد المالك . وظلت الأوضاع غير مستقرة في بجاية ونواحيها ، فقد بقي أبو الحسن يتحين الفرص لاسترجاع بجاية إلى أن تمكن من دخولها في مارس 1446 حيث هاجمها وقتل قائدها أحمد بن بشير ، لكنه لم يستقر بها سوى ثلاثة أسابيع فقط ، حيث خرج إليه أبو عثمان من جديد إلى جانب القائد نبيل من قسنطينة ، وتمكن هذا الأخير من دخول بجاية ، بعد أن غادرها أبو الحسن واعتصم في الجبال ، وعين الملك الحفصي القائد محمد بن فرح على بجاية .

وقامت في توغرت ثورة أخرى تزعمها أمير من عائلة بني جلاب يدعى يوسف بن حسن الذي أعلن استقلاله ، فخرج إليه السلطان في سنة 1449 ، واقتحم المدينة وبعد حصار طويل أسر الأمير ، وعين على رأس قيادة منطقة وادي ريغ أحد القادة الذي كان مواليا لتونس.

وفي سنة 1452 أعاد أبو الحسن حصار بجاية ، وعندما وصلت النجدة من ابن عمر عثمان إلى بجاية ، تآمر عليه بنو سيلين ولا سيما سعيد بن عبد الرحمن بن صخر وصهره محمد بن سعيد ، فألقيا عليه القبض عندما نزل عندهما ، ثم اتصلا بصاحب قسنطينة ، الذي أرسل بدوره الخبر إلى السلطان ، فاستبشر خيرا ، وبعث جيشا لنقله إليه ، كان يقوده شيخ الموحدين محمد بن أبي هلال ، وفي طريقهم به إلى تونس قتلوه بحجة خوفهم من أن يفلته العرب من أيديهم ، وأرسل رأسه إلى السلطان وبذلك انتهت ثورة أبو الحسن التي استمرت لمدة طويلة. بعدها عين القائد منصور حاكما على بجاية ، بينما خلفه ابنه فرح على رأس قسنطينة ، غير أن أهالي المدينة حاولوا التمرد على القائد الجديد ، وتطلعوا إلى مبايعة إبي بكر بن عبد المؤمن الحفصي ، فأمر السلطان بإلقاء القبض على هذا الأخير والذي تم قرب الميلة ، بعدئذ عين على رأس بجاية أبا فارس عبد العزيز .

لقد ظلت المنطقة مسرحا للعديد من الاضطرابات سواء في بجاية أوقسنطينة أوفي توغرت،وكذلك ورقلة ووادي ميزاب. ولما أحس أبو عمر بميل سكان تلك الجهات إلى التمرد، خرج في صيف سنة 1465 في حملة إلى وادي ريغ، فاحتل توغرت، وهدم تحصيناتها، ثم دخل إلى ورقلة ، حيث تلقى التأييد من قبل سكان الصحراء بما. غير أن الضعف الذي أصاب الحفصيين خلال السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، جعل القبائل تلعب دورا في قيادة الأمور في الجهات التي كانت تابعة لها . ففي قسنطينة مثلا إذا كان ممثل السلطان هو المسؤول الرسمي؛ فإنه كان للذواودة وإلى جانبهم أولاد سلامة، وعائلات أخرى مثل عبد المؤمن، وبني باديس، وابن الفقون، كلمة في تسيير شؤون المنطقة.

ثانيا: ضعف الدولة المرينية:

منذ عان 1358 بدأت الدولة المرينية تتهاوى سريعا بتولي الحكم سلاطين دون سن الرشد ما بين (1358-1374) و 1393-1458)، كانوا بلا رأي ، لقد وضع هؤلاء تحت وصاية أقربائهم من الوطاسيين ، كما قا أصحاب غرناطة بتولي دور الوصاية (1373-1393) ، أخر السلاطين هو عبد الحق بن عثمان (1420-1465) استطاع أن يتخلص من أقريائه الوطاسيين بعد أن أقام لهم مذبحة كبيرة 1458، ولم يدم الأمر على حاله وقام سكان فاس بثورة على المرينيين ثم صار أمر المغرب بعد في أيدي الوطاسيين.

لقد ساهمت عدة عوامل في ضعف الدولة المرينية داخلية وخارجية وبالتالي سقوطها وهي كما يلي:

1- **النزاع بين الأمراء المرينيين على العرش:** بدأ هذا النزاع بتمرد أبي عنان على سلطة والده أبي الحسن ، إن هذه الثورة من ولد على والده كانت أسوأ مثل ضرب لأدعياء العرش والثوار على الدولة ، وبما أنه لم يكن لنبي مرين شأن سابقيهم أيضا نظام قار لولاية العهد ، فقد كان كل ملك يتولى العرش يخشى على ملكه من ثورات يقوم بها أمراء الأسرة المالكة، فينفي أخطرهم شأنا إلى الأندلس ، وتكون تلك أسوأ وسيلة للمحافظة على وحدة العرش، حيث ينتهز بني الأحمر أقل فرصة ضعف من بين مرين ليسلطوا عليهم بعض من تحت أيديهم من أمراء بني مرين، وهكذا أمد أبو الحجاج أبا الفضل بجيش يحارب به أخاه أبا عنان الذي كان قد نفته إلى الأندلس ، وقد يلجأ الأمراء إلى بني عبد الواد أو بني حفص أو ملوك قشتالة ، فإن أبا سالم دخل المغرب مخفورا بأسطول ملك قشتالة والتجأ الأمير عبد الحليم إلى السلطان أبي حمو الذي ساعده على دخول سجلماسة في عهد أبي زيان .

2- **ضعف شخصية الملوك بعد أبي عنان (1348- 1358م):** إذا استثنينا ملكين بدرت منهما محاولات لإعادة مجد الدولة وهما أبو سالم وأبو فارس، وكلاهما ولي الملك بعد أبي عنان، فإن باقي الملوك المتأخرين كانوا يتفاوضون ضعفا من حيث صلاحيتهم لتحمل أعباء الدولة، فقد بويع أبو بكر السعيد صبيا صغيرا ، وكان أبو عمر تاشفين ضعيف العقل، أما أبو زيان محمد فلم يكن له نفوذ يذكر ، وبويع أبو زيان الثاني طفلا لم يحتلم بعد، وأدى أبو سعيد عثمان طاعته لبني أبي حفص، وذبح عبد الحق وزراءه الوطاسيين لينصب عوضهم حكومة من اليهود.

3- **استبداد الوزراء وفساد الحكومة:** من أخطر العوامل الداخلية التي أدت إلى سقوط الدولة المرينية ، فطالما كانت السلطة الأساسية بيد الملوك والوزراء الصالحين المتعاونين مع الملوك على خير البلاد . أما والسلطة قد تحولت كلها أو معظمها إلى أيدي وزراء أغلبهم ينظر إلى الملوك نظرة الأوصياء الجائرين إلى اليتامى المحجورين، فإن ثقة الشعب قد ضعفت في هؤلاء وأولئك، فكان ينتهز أول فرصة تسنح حتى يمد يده لأي شخص يخلصه من جبروت الوزراء وغفلة الملوك . وكانت أسرة **الفودودي** من أكثر كبار الموظفين خطرا على الدولة، وهكذا خنق أحدهم **أبا عنان** وأغرق **السعيد** في البحر وخلع **أبا تاشفين** ثم نصب أبا زيان الأول الذي لم يلبث أن لقي حتفه خنقا على يد هذا الوزير (**عمر**). وكان من أخطر الوزراء نفوذا **سليمان بن داود** الذي عمل على قتل ابن الخطيب ومسعود بن رحو الذي دبر اغتيال عدد من الوزراء، ثم كانت أسرة الوطاسيين التي لم يبق معها الملوك المتأخرين أي نفوذ.

4- ضعف الروح الحربية: لعل أقوى برهان على فقدان الملوك المتأخرين ثقتهم بالجيش الوطني اعتمادهم على الجيش النصراني الذي وكلوا إليه حمايتهم وحماية قصورهم، بل ومقاومة المواطنين أحيانا عند تمردهم عوضا عن الجيش الوطني. وهكذا فإن الجيش النصراني ساعد الوزير عمر الفودودي على خلع السعيد ، وأعلن خلع أبي سالم بتأييد غارسيا قائد هذا الجيش، كما أن قتله تم بيد أحد أفراده، وهم غارسيا الذي هم بالفتك بالوزير

عمر لولا أن هذا بطش به قبله. ومن الطبيعي أن تلعب القوى النصرانية دورا فعالا في خلع الملوك وتنصيبهم ما دام هؤلاء قد عهدوا إليها بالمحافظة على سلامتهم .

5- التدخل المسيحي في سياسية الدولة المرينية: شكل هذا التدخل مظاهر مختلفة ، بعضها اتخذ صبغة التأييد المعنوي لتنصيب ملك معين كما كان التدخل أحيانا عن طريق إمدادات عسكرية، ثم انتهى بالتدخل المباشر المسلح. فأبو سالم لقي تشجيعا كبيرا من ملك قشتالة ليتولى عرش المغرب بعد أبي بكر السعيد، واستمد الوزير مسعود القشتاليين أيضا في عهد أبي زيان الثالث حتى يناوشوا ابن الأحمر الذي كان يتدخل بدوره في تنصيب وعزل ملوك بني مرين . وتم احتلال سبتة سنة 1415على يد البرتغال، فعجز بنو مرين عن استعادتها وتكفلت المقاومة الشعبية بمناوشة البرتغال الحرب من آن إلى آخر، ومنذ احتلال سبتة والتدخل المسيحي يتطور ويتسع مداه شيئا فشيئا والدول النصرانية تتكالب على التراب المغربي بمختلف الوسائل.

6- الحرب ضد بني عبد الواد والحفصيين: في معظم الجهود في الميدان العسكري إلى محاولة السيطرة على الدولة الزيانية والدولة الحفصية ، فكان النجاح في جملته محدودا وكان الفشل في كثير من الأحيان يكلف الدولة المرينية خسائر كثيرة في الأموال والأرواح. وقد اصطدموا بمقاومة عنيفة من بين عبد الواد ، كما اصطدموا بنفور الحفصيين.

7- تدخل بني الأحمر: بدأ تدخل بني الأحمر في شؤون المغرب بنحو قرن مضى قبل سقوط الدولة المرينية. ففي عهد أبي زيان الثاني (774-776هـ) أمد ابن الأحمر أميرا ثائرا بأسطول بحجة امتناع الحكومة المغربية من تسليم ابن الخطيب كما ساعد أحمد ابن أبي سالم على تولي الملك، وخشي هذا نفوذه فبطش بابن الخطيب، ثم عمل على خلع هذا السلطان واستدعائه إلى الأندلس وتوليته موسى بن أبي عنان مكانه، حتى إذا توفي هذا وخلفه ابن أخته المنتصر بن أبي زيان، تعاون مع الوزير مسعود علة خلعه وهو بعد صبي، ثم أطلقوا سراح أبي العباس ليستعيد ملكه بالمغرب، وفي الواقع بدأ تدخل بني الأحمر في المغرب على عهد يوسف حيث استولى بنو الأحمر على سبتة سنة 703 هـ، ولكنها لم تلبث تحت أيديهم أكثر من ست سنوات. لقد كان تدخل بني الأحمر في شؤون الدولة المرينية قد أسقط كثير من هيبة الدولة المرينية.

ثالثا: ضعف الدولة الحفصية:

عرفت الدولة الحفصية منذ أواخر القرن 15 أزمة شاملة طالت كل المجالات.

المظاهر السياسية للأزمة:

1- انحلال السلطة المركزية: بدأ مسار التفكك والانحلال في أواخر القرن 15 ، وقد تجلى ذلك في الصراعات بين أعضاء الأسرة الحاكمة بسبب غياب قانون ينظم توارث الحكم وعجز بعض الحكام عن مواجهة الوضع.

2- فقدان السيطرة على أقاليم البلاد: أدى ذلك إلى استقلال عديد المدن عن السلطة المركزية مثل عنابة وطرابلس وقسنطينة وجربة وصفاقص وسوسة وبجاية. مما أدى إلى

إضعاف الحكم المركزي وبروز قوى انفصالية داخلية ، وقد بلغ خطر القبائل أوجه مع الطريقة الشابية بالقيروان.

3- تفاقد الخطر الخارجي: كانت إفريقية مجال للصراع القوتين الإسبانية والعثمانية ودام ذلك الصراع لمدة 40 عاما ما بين 1534-1574.

مظاهر الأزمة الإقتصادية:

1- القطاع الفلاحي: انحصرت المساحة المزروعة وتراجعت الغراسات وذلك لصالح النشاط الرعوي والترحال، وتراجع الإنتاج الفلاحي عن الاقتصاد التجاري الغير متوازن مع البلدان الأوربية. وكان دور الريف يتمثل في تجميع الموارد الفلاحية وتحويلها إلى المدينة للتصدير ، وقد ارتبط تدهور النشاط الفلاحي بعوامل ظرفية تتمثل في تعسف الأعراب.

2- النشاط الحرفي: تدهور أوضا الحرفيين وأصباهم الفقر الشديد، وقد ارتبط ذلك بعدة عوامل منها منافسة البضائع الأجنبية وعدم التمكن من مجارات التطور الحاصل في المدن الإيطالية مثل مدينة جنوة والبندقية ، وثقل الضرائب المفروضة عليها.

3- تراجع النشاط التجاري: تراجع النشاط التجاري داخليا وخارجيا وتراجعت التجارة الصحراوية ، ومن العوامل المفسر لهذا الركود هي أزمة البادية والمدينة والظرفية العالمية الجديدة منها الاكتشافات الجغرافية ، مما أدى إلى تراجع نشاط الموانئ الحفصية.

المظاهر الإجتماعية للأزمة:

1- تفكيك المجتمع: يتجسم ذلك في التنافر بين السكان المستقرين في المدن والقبائل الرحل وسبه الرحل. وساهمت فتاوي العلماء في المزيد من التوتر مثل فتاوي ابن عرفة التي تحث على مقابلة الأعراب تفكك المجتمع الحضري نتيجة تباين مواقف ربض باب السويقة وباب الجزيرة تجاه حملة خير الدين بربروس سنة 1534 على تونس حيث برزت مواقف مساندة للسلطان وأخرى مساندة لخير الدين.

2- انتشار الطرق الصوفية: يعود انتشارها إلى القرن 13 ، وزادت انتشارا في أواخر القرن 15 والقرن 16.وارتبطت بالظروف المتسمة بانعدام الأمن وتعدد الآفات وبتصاعد الخطر المسيحي.

أسباب سقوط الدولة الحفصية:

ـ اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظر له ابن تومرت، وحرصها على تبني عقيده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي، فأصبح الولاء ضعيفاً للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين تابعوا تبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

ـ الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي، وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

ـ استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين، فتضطر أحيانا الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، وأحيانا تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية.

ـ استُهدفت مدن الدولة الحفصية من قبل الإسبان النصارى والأوروبيين عموماً، فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي والانتقام من المسلمين، واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين.
ـ ظهور قوى إسلامية سنّية أصيلة متمثلة في السلطنة العثمانية، والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى ؛ نصرة الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العباد.
ـ تطلّع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامية سنّية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم، ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم، وتعاونوا على البر والتقوى، من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين، ودحر النصارى الغاصبين.
3- ـ كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه الحال من التنازع بين المسلمين، وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى.

ـ ظهور الخطر الأوربي:

وفي جو تلك الاضطرابات الداخلية التي تميزت بها الممالك المغربية ، استغلت بعض الدول الأوربية تلك الحالة ، فحصل بعض ملوكهم على امتيازات لجالياتهم خولت لهم فيما بعد مطلق الحرية في تصرفاتهم . فقد ستطاع ملك فرنسا لويس الحادي عشر خلال سنة 1482 عقد معاهدة تجارية مع بجاية ، التزم فيها ملك بجاية ضمان أمن الجالية الفرنسية الموجودة في مملكته ، حيث كانت تلك الجالية ((تسكن فنادق خاصة بها ، وكل جالية يخصص لها فندق يقيم فيه أفرادها تحت نظر قنصلها الذي كان يسكن معها ، فالفندق كان مخصصا للسكن والتجارة ، وكانت عبارة عن قرية تشمل على كنيسة ومقبرة)). وقد أدى ذلك إلى تردي الأوضاع في المدينة، حيث وصف تلك الحالة الفقيه أحمد الشريف البجائي ، ضمن السؤال الذي وجهه إلى أستاذه أحمد بن الحاج البيدري التلمساني بعد عودته من تلمسان فقال: ((ماجوابكم في موضع كثر فيه الظلم والأشرار وانتشر فيه الباطل ، وذل فيه المسلمون ، وعز فيه الكفار ، وارتفع فيه الجور والظلم ، واتضع فيه أهل والمعرفة العلم ، تمكس فيه جل المبيعات على المسلمين)) .

هكذا بدأ التغلغل الأوربي العسكري نشاطه في المنطقة منذ بداية القرن الخامس عشر ، ففي سنة 1415 احتل ملك البرتغال يوحنا الأول مدينة سبتة الساحلية ، وفي عام 1458 ، قام بعده ألفونسو الخامس باحتلال قصر المجار . وبعد ذلك بسنوات استولى على أرزيلا على المحيط الأطلسي ، وعلى طنجة في سنة 1471 . بينما انصبت أنظار مملكة أراغون نحو إفريقية الحفصية ، وأنظار مملكة قشتالة على البقية الباقية من مملكة غرناطة . حيث غزا ألفونسو الخامس جزيرة جربة سنة 1432 . لكنهم لم يبقوا فيها سوى سبعة وعشرون يوما فقط . ولم يكن المغرب الأوسط بمعزل عن تلك الأخطار ، فقد تردد عليه عدد من الجواسيس الأوربيين في صورة تجار أو غير ذلك من المهن ، الذين كانوا مبعوثين من قبل الملوك الأسبان.

لقد تنبه بعض الأعيان والعلماء الجزائريون لتلك الأخطار التي أخذت تهدد الأراضي الأراضي الجزائرية وغيرها من بلاد المغرب ، ولعل من أشهرهم الشيخ عبد الرحمن

الثعالبي ، الذي بعث برسالة في الجهاد إلى أحد تلاميذه في نواحي بجاية ، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد، يدعوه فيها لإقناع العوام بوجوب الاستعداد للجهاد لمواجهة الأعداء ، ولم يكتف الثعالبي بحث العامة فقط بالخطر المحدق بهم ، بل بعث رسائله إلى الفقهاء أيضا ومما جاء في نص الرسالة : ((أكتب رحمك الله لإخواننا ببجاية وحذرهم ليتيقظوا ويعملوا ما أشرنا إليه ... ولو اطلعتم على ما اطلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا بشيء من أمور مهامكم بعد الصلاة إلا بآلة الجهاد)). وبعد سقوط غرناطة واحتلال الإسبان لبعض المدن الساحلية لبلاد المغرب ن أنذر الأديب الشيخ محمد التواتي سكان مدينة وهران بقصيدة مطولة منها البيتين التاليين:

يا أهل وهران انظروا نظرة شفقة لبلدكم من قبل أن تتردى
وقبل مجيء المنشـــــــــــآت ببحرها وأي قلوب عندها مستقرتي

ولعل عدم الحيطة والحذر من التحرش الأوربي تجاه البلاد ، التي لم تحضى بالعناية من جانب ملوك وعلماء وعامة الناس جعلت المنطقة تتعرض إلى تلك الهجمة الصليبية الجديدة التي بدأ فصولها منذ أواخر القرن الخامس عشر واستمرت طوال القرن السادس عشر.